بنـاء «مملكـة القـدس القديمة»؛ ثمّ وجه نداء آخر في الرابع من نيسان (ابريل) ١٧٩٩، في اثناء محاصرته لمدينة عكا؛ وكان مما ورد فيه: «ان العناية الالهية التي أرسلتني على رأس هذا الجيش الى هنا قد جعلت العدل رائدي، وكلفتني بالظفر، وجعلت من القدس مقرّي العام، وهي التي ستجعله، بعد قليل، في دمشق التي يفيد جوارها لبلد داود». وخاطب بونابرت اليهود بقوله: «يا ورثة فلسطين الشرعيين»؛ ودعاهم الى مؤازرته، طالباً منهم العمل على «اعادة احتلال وطنهم»[٣]. وقد تحطمت أحلام بونابرت، ومن خلفه اليهود، في تحقيق حلمهم الاستعماري أمام أسوار عكا. وعلى الرغم من هزيمته وفشـل حلمـه الصهيـوني، فقـد وصفـه حاييم وايزمان، أول رئيس للدولة الصهيونية، بأنه «أول الصهيـونـيين العصريين من الأغيار»، وكان الأنسب ـ كما قال د. عبدالوهاب المسيري ـ «انه أول الصهيونيين على الاطلاق، لانه لم يكن هناك من أثر لأي فكر صهيوني بين اليهود في ذلك التاريخ... ويمكننا، في الواقع، اعتبار نداء نابليون الاسترجاعي أول وعد بلفوري»[٤].

وكما راقبت بريطانيا الحملة الفرنسية، منذ تحركها سراً بعيداً من الأسطول البريطاني، والذي لحق بهـا ودمّر الأسطول الفرنسي في أبي قير، ظلت بريطانيا حتى رحل الفرنسيون عن مصر العام ١٨٠١ وأصرت الدولة العثمانية على خروج بريطانيا، والذي تمّ العام ١٨٠٣، حيث اصطحبت معها أحد عملائها من المماليك (محمد الألفي). ولأن بريطانيا لم تتوقف عن اهتمامها بمصر، فكانت حملة فريزر العام ١٨٠٧، والتي دحرت امام مقاومة الشعب المصري في رشيد. لكن اهتمامها لم يتوقف حتى كان احتـلالهـا لمصر العام ١٨٨٢. وبظهور محمد علي، منذ العام ١٨٠٥، وتحركاته العسكرية في الجزيرة العربية (١٨١١) ومشروعه الاستقلالي في اطار الدولة العثمانية، واصلاحاته، وبعثاته الى أوروبـا، وعلاقته بفرنسا، أصبح دور بريطانيا يتركّز على تحطيم محمد علي ومشروعه، لانه اصبح المنافس الحقيقي في وراثة تركة «الرجل المريض» ـ الدولة العثمانية. ولمّا كان محمد علي حريصاً على تحركاته في اطار الدولة العثمانية وتعليمات السلطان، فقد اشترك في حرب المورة لاخماد ثورة اليونان. ولما كانت السياسة والمصالح لا تعرف الصداقة، فقد اشتركت فرنسا مع بريطانيا في تحطيم اسطول محمد علي. وقد قال محمد علي، معلقاً على هذا الحادث: «ان منظر الفرنسيين وهم يطلقون النار على سفنهم، تلك السفن التي بنوها لمصر، لهو منظر يثير الألم؛ بل هو منظر يفتت الأكباد ويبكي العين الجماد»[٥]. وما ان تحرك محمد علي بجيوشه، بقيادة ابنه ابراهيم، نحو الشام (١٨٣١) حتى جنّ جنـون بريطانيا، وبدأت المؤامرات واضحة ضد محمد علي، خاصة ان جنوده كانوا يدقون أبواب الآستانه، وأصبح محمد علي مؤهلاً لأن يرث الدولة العثمانية، ولديه من المؤهلات التي لا تستطيع بريطانيا التمسّح بها (الدين). وهنا نلاحظ ان الدولتين الاستعماريتين، فرنسا وبريطانيا، لا تعنيهما فتوحات محمد علي في الجزيرة العربية، او السودان؛ بل أكثر من هذا كان الاتفاق معه حول الذهاب الى الجزائر؛ لكن الموقف اختلف تماماً في الشام حيث فلسطين، وحيث الموقف الصهيوني الذي تبنّاه عدد من السياسيين البريطانيين، ومن قبلهم الفرنسيون.

ولن نستطرد في تتبع صراع الدول الاستعمارية حول تركة الدولة العثمانية، الّا بما يخدم تتبعنا لموقف هؤلاء من الصهيونية، وموقفهم من مصر. فقد أدركت بريطانيا ان وجود طائفة تعتمد عليها في بلاد الشام أمر في غاية الأهمية بالنسبة الى مصالحها في تلك البلاد، خاصة ان فرنسا كانت تتمتع، منذ العام ١٥٣٥، بحق حماية الكاثوليك؛ وروسيا، منذ العام ١٧٧٤، بحق حماية الأرثوذكس في الدولة العثمانية. ولذا، فقد رأت في اليهود أقلية يمكن ان تعتمد عليها في فلسطين، تماماً كم فعلت، فيما بعد، العـام ١٨٦٠، حينمـا وجـدت في الدروز قوة موالية لهـا، ولم يكن من العسـير ان تدرك انـه في